سير الإبل وحداؤها

حركة الإبل

يختار البعير عادة الأماكن اللينة ليبرك عليها، وهو يبــرك متدرجاً ببطء. وتتم هذه العملية على عدة مراحل: ثني يديه الأماميتين وسقوطه بصورة مفاجئة على عظمتي الرسغــين الأماميتين فالركبتين؛ ثم ثني رجليه الخلفيتين، ثم ينزل مقدمة جسمه إلى أسفل. ومن ثم فإنه يمد يديه الأمامــيتــين المنثــنيــتين بحــيث تمــتدان مستقيمــتين في مقدمة حوضه. ويتركز ثقل الــبعير عندئــذ على قَصِّهِ الــصلب (الزور، الكركرة) ثم يثني رجليه ويستوي باركاً. ويمكن للبعير أن يظل باركا لعدة ساعات يجتر خلالها ويريح جسمه وينام. وأحيانا يــأكل مطمئنا إلــى عدم تعرض جسمه لأشعة الشمس سوى جزء محدود منه. وعندما يكون البعير متعبا، فإنه يمد رقبته إلــى الأمام على الأرض في خط مستقيم مع جــسمه، ويغط، وهو على هذا الوضع، في نوم عميق.

الاستعداد للبروك

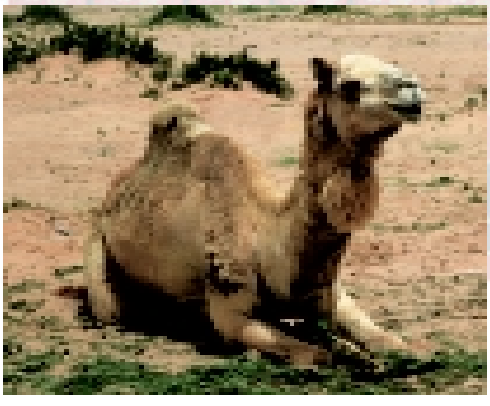

البروك

وينهض البعير من بروكه في ثلاث حركات واضحة: الأولى هي أن يرفع مقدمته أولاً، حتى ترتفع مقدمته وركبتاه عن الأرض، الثانية هي رفع مؤخرته حتى تستقيم رجلاه واقفتين. الثالثة هي رفع يديه واحدة بعد الأخرى، وذلك بوضع خفيه على الأرض ورفع مقدمته ليستوي واقفاً.

ويجد البعير صعوبة في النهوض إذا كانت إحدى قوائمه مجروحة. وفي هذه الحالة، يمكن أن يظل البعير باركا لمدة أسبوع أو أطول، حتى تشفى الرجل ويستطيع النهوض.

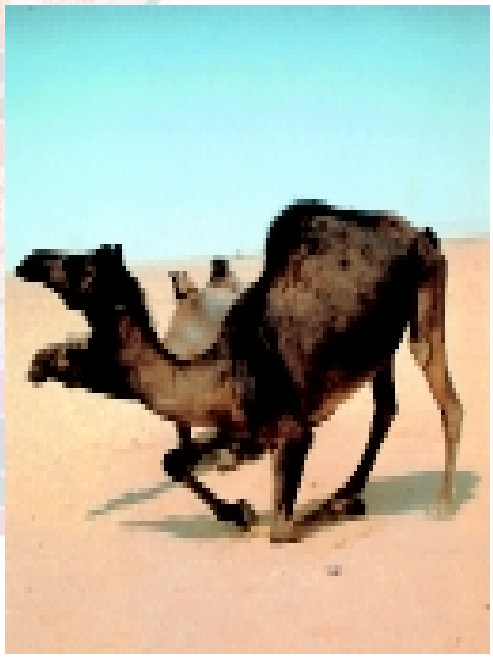

الاستعداد للنهوض

وفي جسم البعير مناطق صلبة شبه دائرية في كل من القص والأكواع والعراقيب. تساعد في دعم وزن البعير عند بروكه. وهذه الأماكن تشاهد في الإبل حديثة الولادة، ولكنها ترى بوضوح في الحوار الذي يبلغ عمره شهرين ونصفاً تقريباً والذي يكون وبره قد سقط في هذه المناطق التي تتصلب فيها الأنسجة الخارجية نتيجة لتكرار ملامسة جسمه للأرض عند البروك. وتزداد صلابتها بمرور الوقت. وهذه المناطق غير ملونة، ويتراوح قطرها بين ٥ و١٠ سم بحسب المنطقة فيما عدا منطقة القص (الكركرة)، فقطرها يتراوح بين ١٥ و٢٠ سم. وإذا ثوى البعير بمبركه ولم يستطع النهوض، لهزال أو مرض، فإن عصا غليظة توضع تحت زوره ويرفعه بها عدد من الرجال، بينما يرفعه آخرون من مؤخرته حتى يعتدل واقفاً على قوائمه. ويستطيع البعير عند سيره أن يحمل أثقالا تزيد عما يحمله الحصان بسبب تقوس ظهره، وتحدبه. وقد يحمل الجمل أثقالا يصل وزنها إلى ١٥٠ كجم ويسير بها لمسافات طويلة. ويمكنه أن يحمل ضعف هذا الوزن أو يزيد، أي أثقالا يصل وزنها إلى ٣٠٠ كجم ولكن لمسافات قصيرة فقط.

بعض المناطق الصلبة في جسم البعير

والوزن الذي يمكن أن يحمله البعير يكون، غالباً، محدوداً بذلك الوزن الذي يستطيع النهوض به من وضع البروك. فإذا كان وزن الأثقال أكبر من طاقة احتماله فإنه لا يستطيع النهوض، خاصة رفع مقدمة جسمه، فإذا تمكن من رفع هذا الجزء من جسمه فإنه يستطيع أن ينهض على يديه الأماميتين.

وأحياناً يزاد على حمل البعير بعد وقوفه حملاً آخر فوق الذي قام به من مبركه حتى ينوء به فلا يقوى عليه، ومن ذلك جاء المثل «كالقشة التي قصمت ظهر البعير»، وتختلف الإبل في قوة النهوض بأحمالها، ويشبه الرجال بالإبل في تحمل المسؤوليات والأعباء ويوصف الرجل شديد التحمل بأنه «جمل المحامل». قال مقحم الصقري العنزي:

خطو الولد مثل البليهي ليا ثار
إن كبّروا حمله تزايد زفيفه
يشدى هديب الشام حمّال الاقطار
زود على حمله نقل حمل اليفه

ويقول الحبردي إن بعض الإبل عندما ترتوي وتصدر عن الماء قد تبرك أو تبدأ بالتمرغ، مستلقية على أحد جانبيها وتحرك قوائمها، لتضع عن أجسامها عناء ذلك اليوم. وعلى كل حال فالبعير بطبيعته عندما يبرك على الأرض بعد الجهد فإنه يتمرغ، إذ يستلقي على أحد جانبيه ويدعك جسمه على الأرض بحركة من قوائمه الطويلة، ثم يعتدل ويعود إلى التمرغ على الجانب

التمرّغ

الآخر، ويكرر هذه العملية حتى يستريح تماماً، ثم يبرك لـفترة من الوقت وبعدها ينهض على قوائمه ويرفع رأسه إلى أعلى وينفض بدنه بقوة؛ حتى يتساقط عنه كل ما عـلق بـه من الأدران وغـبار الأرض (١٥:١٤٠٩).

سير الإبل

يمشي البعير على أربع وكـأنه يمشي على رجلـين اثنتين، إذ تتحرك الرجـل واليد في كـل جانب من الجسم حركة موحدة إلى الأمام، وإلى الخلف، بالتبادل مع الرجل واليـد على الجانب الآخر، ويشترك معـه في ذلك بعض الثدييـات كالفيل والزرافة مثلاً.

وتسير الإبل فرادى وببـطء تتقدمها الجل وتتبعهـا حشوانها إذا كانت ذاهبة للمرعى، أما إذا كانت واردة الماء، وقد اشتد بها الظمأ، فإن الحشوان تكون أول ما يصل إلى الماء. فإذا كان البدو منتقلين إلى مناطق بعيدة (محيلين) فيتقدم الركب نشيطات الإبل، أياً كان سنها، وتسمى السريعات منها الطرعات وآخرها الجرور.

وتتـجنب الإبـل في سيرهـا الصخـور والحجارة التي تؤثر في أخفافها الرقـيقة وتصيـبها بالجروح. وقد لاحـظ بعض الدارسين لسلوك الإبل، أنها خلال أشهر

الحركة الموحدة للقوائم عند السير

إبل في طريقها إلى المرعى

البرد تسير أحياناً في ثلاث مجموعات متتالية. الأولى مجموعة النوق مع حيرانها في المقدمة ومعها جمل فحل واحد؛ والثانية مجموعة الجمال المخصية فقط؛ أما الثالثة فنوق مع حيرانها فقط. ويسير الجمل الفحل أغلب اليوم إلى جانب واحد من قطيع النوق ولا يتحول إلى الجانب الآخر إلا مرة أو مرتين خلال هذه الفترة. ولكن متى كان الفحل هائجاً في موسم الهداد فإنه يسير في أطراف القطيع أو خلفه، ويغير مكانه بين الحين والآخر. فإذا فدر فإنه ينفرد عن القطيع ويسير بعيداً ووحيداً، فتتبعه المعاشير من الإبل التي ألقحها، فيرده الراعي إلى القطيع حتى لا يتفرق.

والبعير سريع العدو إلى حد ما، لكن من الحيوانات الثديية الأخرى أنواع تفوقه في سرعة العدو، وهو يفوقها جميعاً في شدة تحمله للظروف الجوية غير المناسبة لمسافات طويلة. ويستطيع البعير أن يقطع مئات الكيلومترات بسرعة ٧كم في الساعة، وتختلف الإبل في ذلك، ومنها ما هو أكثر سرعة.

وقد استفاد الإنسان فوائد جمة باستئناسه الإبل، ليس أقلها انتفاعه بلحمها ولبنها وبعض أعضاء جسمها، ثم قدرتها على التنقل به وبمتاعه والسير لمسافات طويلة في ظروف بالغة القسوة، وبالسرعة التي يريدها. وهذه الخاصية الأخيرة في الإبل تعد من أهم خصائصها

بسبب حاجة الإنسان، والبدوي خاصة، إلى الحل والترحال في رحلاته للبحث عن مقومات العيش. وطول مرافقة العربي للإبل في مختلف حالات سيرها جعلته يخصص أسماء متعددة لوصف كل حالة من سير الإبل. فخصص من الأسماء ما يناسب حالة المشي أو الهرولة أو العدو أو ما هو فوق ذلك، سواء أكانت ركوباً للمرأة على شكل هودج، أو ركوباً للرجل على شكل هجين، أم سباقاً في أقصى سرعة، كالذي نشاهده مما يسمى في هذا الزمان بسباق الهجن.

ما ورد عن سير الإبل في مأثور القول والأدب

أعطى العربي كل نوع من أنواع السير اسماً يدل عليه، وبسبب تعدد القبائل التي كانت تطلق هذه الأسماء أو الصفات لأنواع السير، تعددت تلك الأسماء وكثرت. فجمعتها كتب اللغة والمعاجم وصنفتها تصنيفاً أولياً، يدل على أنواعها أو درجاتها، وتناولها الشعراء في أشعارهم، ونسوق هنا طرفاً مما جاء في نثرهم وشعرهم.

في النثر. أطلقت العرب على السَّوق الشديد أسماء عديدة كالخبز والتجليح والإحواز والحَوْذ والطمْل والذأو والسن والهرع والذوخ والحَزْء وغيرها. كما أعطوا السير الشديد أسماء كثيرة كالنجر والمَلْس والهبهبة والحتحتة والعجران والخيطف والولق والوجيف والزيفان والنس والإرمداد والإغذاذ والادرنفاق والهفيف والميح والوخط والإرقال، وغيرها.

أما السير الرفيق فقد سموه التهويد والمَلْخ والمَلْق والدلْو والتطفيل والبشْك والدفيف والرِّسل والرهو ونحو ذلك.

وأما السير في السرعة فمنه الاجلوّاذ والإعصاف والبزبزة والنجاء والهزع والمزع والمصع والزفيف وما كان في معناه.

ومن الأسماء التي أطلقوها على السوق والقيادة الهجم والتقتقة والعكل والمَرْد والنَسأ والنجش والنهم والطر والألب والفن وهلم جراً. كما أعطوا السير مقروناً بالزمان أو المكان أسماء تدل عليه، فقالوا الإسآد: وهو أن تسير الإبل الليل مع النهار. أما إذا كانت الإبل تسير النهار وتنزل الليل فذلك هو التأويب، فإذا آثر الراكب المسير في الليل فقط فذلك هو المسد، فإذا سارت كأنها تنزو فذلك هو الجمزى والولقى والوكرى. فإذا تلوَّت الناقة في مشيها فهو التمعج أو التعمّج، وإذا اعترضتْ الناقة سير قطيع الإبل فهو العِرْضنّة، أما التبغيل فهو صفة للمشي

فيه اختلاط بين الهملجة والعنق، فإذا تبارت النوق مع بعضها على وتيرة واحدة في المسير سموا ذلك المواضحة أو المواعدة، فإذا كانت مثقلة في المسير فهو التهادي، فإذا ركبت رأسها في السير فهو السدو.

وكذلك أعطوا درجات السير وتسارعه أسماء بحسب ذلك التسارع؛ فالعَنَق من السير الممتد، فإذا ارتفع عن العنق قليلاً فهو التزيّد. والجمز أشد من العنق، فإذا ارتفع عن ذلك فهو الذميل أو الزفيف، وهو سرعة الخطو ومقاربة المشي، وفوق الذميل يأتي الرسيم، وهكذا.

ومن أنماط السير الهادي: الدفيف وهو السير اللين، والدلو والتطفيل وهما السير الرويد، والتهويد سير الإبل الرفيق، والطم هو العدو السهل، والوضع هو أهون سير الإبل. فإذا تبختر البعير فهو الزياف والناقة زيافة، أما السير البطيء فمنه المكرى، ومن السير الخفيف البشك. وإذا اتسعت خطوات البعير فإن لذلك أسماء أيضاً منها التبغيل والإيعاس والخطرفة والوخد. والرمل من سير الإبل شبيه بالهرولة.

ومن السير السريع الحوذ والارقداد والرسيم والعنق والإيعال والوجيف. وإذا عدا البعير فذلك يسمى الخبب ودونه الإحفاد ودون ذلك الهربزة والتقريب، ومنه الوكر وهو عدو فيه نزو.

ومن السير الشديد النبل والوهس. وأشد عدو الإبل يسمى الدأداء والرَّبع، وهو أن يضرب البعير بقوائمه كلها، وهو الغارة، وذلك أن يجمع قوائمه كلها الأمامية والخلفية والقفز إلى الأمام بسرعة وبحركة متتالية ويكون هذا عادة في بداية السباق. وقريب من ذلك الدرهام وهو أن يمد البعير خطواته، ثم يتابع بينها بسرعة وانسياب، وهو الدفلاج والزرفال والإهذال والحضن. وإذا استمر البعير على هذه السرعة تقول البادية «سك البعير». ومن السير العنيف الذوح والذأو والطمل.

ومن أنواع السير التي تصحبها بعض الحركات المواهقة، وهي المواظبة على السير مع مدّ الأعناق، فإذا ارتفعت الإبل وانخفضت فذلك العوم. وإذا رأيت الراكب يعلو ويهبط بحركات متتالية كما يرفرف الطائر بجناحيه فذلك الفديد وهو أقل من القرونة وأسرع من الدرهام.

ومن ضروب السير المتقدمة اتخذت الإبل بعض صفاتها؛ فالذمول هي الناقة التي تذمل في سيرها، والذميل السير السريع للإبل، والذميل أيضاً السير اللين، وقيل: هو فوق العَنَق، وإذا ارتفع السير عن العنق قليلاً فهو التزيد فإذا ارتفع عن ذلك فهو الذميل ثم الرسيم.

والعجول: الناقة التي معها ولدها فتسرع العدو إلى ولدها إذا حن إليها. والعجول أو العجلى عند البادية هي الناقة السريعة المشي أو التي ترعى وتتحرك في المرعى بصورة سريعة ولا تثبت في مكان واحد.

والعصوف: الناقة السريعة التي تعصف براكبها وتذهب به كالريح. كما يقال ذلك للذلول التي لم يتم عسفها جيداً فتعصف بجسمها لتسقط راكبها.

والكبيع: الناقة السلسة القياد. وكاست الناقة: إذا عقرت (قيدت) إحدى قوائمها فمشت على ثلاث قوائم. وهو

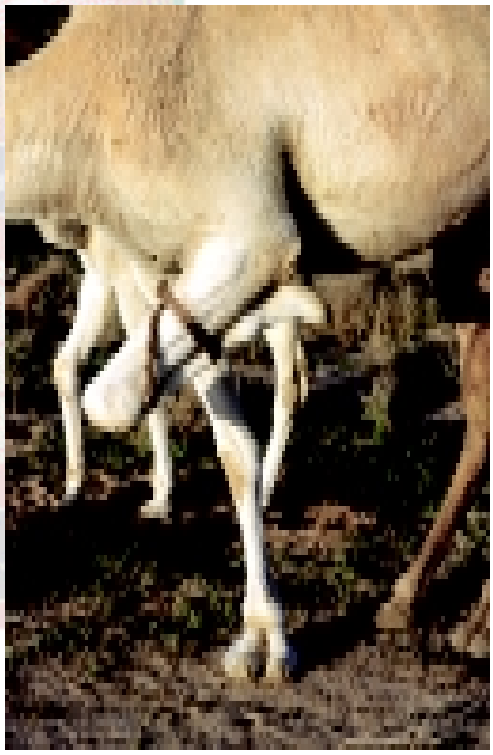

السير على ثلاث قوائم

كذلك أشد الجري. والمكابعة أن يرفع البعير يديه معاً ورجليه معاً ويضرب بهما الأرض يقفز قفزاً. وإذا تعدى الرجل حده بالفعل أو القول وصفوه بالبعير إذا كبع، وهو كذلك التوقف الفجائي، أو العودة للخلف عند رؤية الناقة ما يفزعها. وهو أيضاً جمع البعير لقوائمه الأمامية ورفعها إلى أعلى ثم إنزالها إلى الأسفل وجمع القوائم الخلفية كذلك ومتابعة القفز في مكان واحد تقريباً. ويحدث ذلك عندما يجفل البعير، وهو الرثيع.

والهوجاء من النوق هي القلقة السريعة الحركة، وهي محمودة عند العرب. والهلواعة هي الناقة السريعة التي تخاف السّوط، فإذا استوحشت الناقة وهربت تقول البادية هجّت، والاسم منه الهجيج.

وورد في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، أن سليمان بن عبد الملك كتب إلى عامله: أصب (اشتر) لي نجائب كراما، فقدم رجل على جمل سباعي (عظيم الطول) عظيم الهامة له خلق لم يروا مثله قط، فساموا، فقال الرجل: لا أبيعه، قالوا: لا ندعك، ولانغضبك، ولكنا نكتب إلى أمير المؤمنين بسببه، قال: فهلا خيراً من هذا؟ قالوا ماهو؟ قال: معكم نجائب كرام، وخيل سابقة، فدعوني أركب جملي، وأبعثه واتبعوني، فإن لحقتموني

فهو لكم بغير ثمن، قالوا: نعم، فدنا منه، فصاح في أذنه، ثم أثاره فوثب وثبة شديدة فكبا ثم انبعث واتبعوه فلم يدركوا كيف أخذ (أين ذهب) ولم يروا له أثراً، فجعل أهل اليمن علماً على وثبته يقال له الكفلان (١٩٢٥, ١: ١٦٢).

ورد في كتاب الحيوان للجاحظ «وقد علمتم أن أول شأن الجمازات، أن أم جعفر أمرت الرحالين أن يزيدوا في سير النجيبة التي كانت عليها، وخافت فوت الرشيد، فلما حُرّكت مشت ضروباً من المشي، وصنوفاً من السير، فجمزت في خلال ذلك، ووافقت إمرأة تحسن الاختيار، وتفهم الأمور، فوجدت لذلك الجمز راحة، ومع الراحة لذة، فأمرتهم أن يسيروا بها في تلك السيرة فما زالوا يقربون ويبعدون، ويخطئون ويصيبون، وهي في كل ذلك تصوبهم وتخطئهم على قدر ما عرفت، حتى شدوا من معرفة ذلك ما شدوا، ثم إنها فرغتهم لإتمام ذلك حتى تم واستوى» (١٣٦٤، ج١: ٨٣).

الجمازات: نوع من سلالات الإبل سبق التطرق لها، ويبدو أن اسمها اشتق من طبيعة السير سابقة الذكر.

وقالت العرب في أمثالها «إنك لتحدو بجمل ثقال» أي بجمل بطيء الحركة. وكانت العرب أيضاً تضرب المثل في طلب ما يتعذر بقولهم:

تسألني أم الخيار جملا
يمشي رويداً ويكون أولا

في الشعر الفصيح. أما ما ورد في الشعر العربي عن سير الإبل وأنواعه ونقلها لأطرافها فكثير نذكر منه قول طرفة بن العبد:

تباري عتاقاً ناجيات وأتبعت
وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد

تباري: تسابق، والناجيات: المسرعات في العدو، والوظيف: ما بين الرسغ إلى الركبة، وهنا يقول الشاعر: إن ناقته تباري إبلاً كراماً مسرعات في السير وتتبع وظيف رجلها وظيف يدها. أما الحطيئة فيقول: إن يدي ناقته ترميان بالحصى إلى الخلف، أما الرجلان فترميان به مؤخرة رسغ اليد، وذلك قوله:

وترمي يداها بالحصى خلف رجلها
وترمي به الرجلان دابرة اليد

وقال الأخطل:

والرجل لاحقة منها بأولها
وفي يديها إذا استعرضتها رَفَق

يقول الشاعر: إن أرجل مطيته كادت أن تتلاحق وتتلامس من سرعة العدو وتدفقها فيه دون تعب أو كلل. ويصف

أوس بن حجر حركة البعير ونقل بعض قوائمه مع بعض كما سبق أن أشرنا إلى ذلك؛ فيقول:

تـوائـم آلاف نـوال لـواحـق
سـواة لـواة مـربـذات خـوانـف

ويقصد الشاعر بتوائم آلاف: أي كأنها في حركتها توائم متآلفة تنهض معاً وتحط معاً تتوالى وتتلاحق وهي لينة السير (سواة) لا تتعب راكبها، والربذ (مربذات): خفة نقل القوائم في المشي، والخوانف: تهوي بأيديها إلى ضبعها (عضدها). ويقول ذو الرمة:

زجول برجليها نغوصٌ برأسها
إذا أفسد الإدلاج لوث العصائب

زجول: يعني أن الناقة تسير بالوخد، نغوص: تحرك رأسها عند عدوها. ويقول أبو تمام:

فزمت للرحيل مخيسات
يصلن بها الذميل إلى الوخيد

يقول: جهزت الإبل المحبوسة، وسارت بسير الذميل ومنه ارتفع سيرها إلى الوخيد. ويقول أبو الطيب المتنبي:

أرى النوى تقتضيني كل مرحلة
لا تستقل بها الوخادة الرسم

النوى: البعد، والوخادة: من الإبل هي التي تسير بالوخد، والرسم: التي تسير بالرسيم.

أما الأخطل فيعبر عن ناقته التي تعدو عدو الوخد كأنها مجنونة، كأنما يوجد بكنف جنبها هِر مسعور أصابه داء الكلب، ينهشها ويخدشها بأظافره ويثيرها فتعدو، يقول:

كأنها يعتريها كلما وخدت
هِر جنيب به مس من الكَلَب

أما المثقب العبدي (عائذ بن محصن) فيقول:

بصادقة الوجيف كأن هراً
يباريها ويأخذ بالوضين

أراد أن ناقته صادقة في وجيفها أي سيرها السريع ولا تكذب، ولشدة هذا السير وسرعته كأن هراً يخدشها وينهشها ويمنعها من الهدوء والسير ببطء ويأخذ بحزام رحلها (الوضين). ويقول أبو الطيب المتنبي أيضاً مشيراً إلى الإبل التي سيرها الرسيم:

تخبو الرواسم من بعد الرسيم بها
وتسأل الأرض عن أخفافها الثفن

أما الحارث بن ظالم فيقسم برب الراقصات، وهي الإبل التي تسير كأنها راقصة، وهو سير الخبب، فيقول:

تمنيت جهداً أن تضيع ظلامتي
كذبت ورب الراقصات الرواسم

ويقول امرؤ القيس:

فدعها وسل الهم عنك بجسرة
ذمول إذا صام النهار وهجرا

ذمول: من الذميل وهو السير اللين السهل للإبل. ويقول كعب بن زهير بن أبي سلمى:

ولا يبلِّغها إلا عذافرةٌ
فيها على الأين إرقال وتبغيل

الإرقال والتبغيل، من ضروب سير الإبل. ويقول طرفة بن العبد:

وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت
مخافة ملويٍّ من القد محصد

يقول الشاعر: هذه الناقة مذللة ومدربة ومروضة فإن أردت أسرعت في سيرها، وإن أردت لم تسرع مخافة سوط ملوي موثق. ويقول الأخطل:

وحارت بقاياها إلى كل حرة
لها بعد إسآد مراح وأفكل

حارت: سقطت، والأفكل: النشاط، يقول الشاعر: إن الضعاف من المطايا قد سقطت في الطريق إعياءً، ولم تسلم منها إلا المطايا الأصيلة الكريمة التي تسير في الليل دون أن تتعب أو يصيبها الكلال. والإسآد: هو إسراع الإبل في الليل خاصة. ويقول الشاعر بشر بن أبي خازم الأسدي:

بذعلبة براها النص حتى
بلغت نضارها وفنى السنام

النص: إجهاد الإبل على السير السريع، والذعلبة: الناقة السريعة، والنضار: الخالص، أي سرت عليها وأجهدتها على السير السريع حتى ذهب لحمها وقوتها. ويقول النابغة الذبياني:

قد تجاوزتها وتحتي مروح
عنتريس نعابة معناق
عرمسي ترجم الآكام بأخفا
فٍ صلاب منها الحصى أفلاق

العنق هو السير السريع، والمروح: النشيطة، والعنتريس: الصلبة، ونعابة: أي تمد عنقها عند عدوها، والعرمس: الصلبة أيضاً، والآكام: المرتفعات. ويقول الأخطل أيضاً:

على مذكَّرة ترمي الفروج بها
غول النجاء إذا ما استعجل العنق

المذكرة: الناقة الشبيهة بالجمل الذكر، وتسميها البادية جماليه والفروج: تشعب الطريق، والغول: الشديد، والنجاء: السرعة. وقد أشار أبو الطيب المتنبي إلى سير الهيدبى، وهو ضرب من سير الإبل فيه سرعة، يقول:

ألا كل ماشية الخيزلى
فدا كل ماشية الهيدبى

الخيزلى: مشية فيها استرخاء وتفكك وتغنج كمشية النساء.

والسواك: مشي الإبل المهازيل الضعاف، يقول أبو الطيب المتنبي:

أحاذر أن يشق على المطايا
فلا تمشي بنا إلا سواكا

أما السدو، فهو أن يرمي البعير بيديه عند السير، يقول ذو الرمة:

ورجل كظل الذئب ألحق سدوها
وظيف أمرَّته عصا الساق أروح
وسوج إذا الليل الخداري شقه
عن الركب معروف السماوة أقرح

عصا الساق: عظم الساق وهو الوظيف، وسوج: تسير الوسيج وهو أحد ضروب سير الإبل، والزفيف: عدو الإبل بخطى متقاربة. يقول الشاعر عبيد الراعي (عبيد بن حصين):

قذف الغدو إذا غدون لحاجة
دلف الرواح إذا أردن قفولا
قوداء تذرع غول كل تنوفة
ذرع الموشح مبرما وسحيلا

القوداء: الطويلة، والموشح: الثوب المتداخل، يقال: هذه ناقة تذرع بُعْدَ الطريق: أي تمد باعها وذراعها لتقطعه، وهي تذارع الفلاة وتذرعها: إذا أسرعت فيها كأنها تقيسها.

الرهو: هو سير الإبل ببطء. يقول الشاعر القطامي:

يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلة
ولا الصدور على الأعجاز تتكل

قال الأصمعي: جاءت الإبل رهواً: أي يتبع بعضها بعضاً، لا تخذل أعجازها صدورها ولا صدورها أعجازها.

وقد ورد في التراث العربي أيضاً ما يفعله السير في جسوم الإبل، وما تفعله هي أثناء مشيها وعدوها.

قالت العرب في أمثالها «إذا زحف البعير أعيته أذناه» يقال زحف البعير: أي أعيا فجر فرسنه عياً. وتقول العرب في أمثالها أيضاً «لطمه لطم المنتقش» إذا لطمه لطماً متتابعاً، وذلك أن البعير إذا شاكته الشوكة (دخلت في رجله) لا يزال يضرب يده على الأرض يروم (يريد) انتقاشها (إخراجها). قال لبيد بن ربيعة العامري:

وإذا تغالى لحمها وتحسرت
وتقطعت بعد الكلال خدامها

تغالى اللحم: ارتفع إلى رؤوس العظام، وتحسرت: أي صارت حسيراً، فهي كالة مُعْيِيَة عارية من اللحم، والخدام: جمع خدمة: وهي سيور تشد بها النعال إلى أرساغ الإبل. وقال المتنبي:

إذا ظفرت منك العيون بنظرة
أثاب بها معيي المطي ورازمه

الرازم من الإبل: الذي قام من الإعياء، وأقعده الهزال عن المشي. وقال أعشى باهلة:

وراحت الشول مغبراً مناكبها
شعثاً تغير منها النيُّ والوبر

ومعنى قول الشاعر: إن مناكب هذه الناقة مغبرة من الرياح، والعجاج وغيَّرها

الجدب والقحط، وقلة المرعى فصارت هزيلة. وقال الأخطل:

تفل جلاذي الأكام إذا طفت
صواها ولم تفرغ بمجمرة سمر

يريد الشاعر أن الناقة بالرغم من عدوها الشديد، ما زالت تطأ الحجارة فتفلقها (تكسرها) وتشقها، وهي تعلو الآكام بأخفافها المجتمعة الصلبة.

وتقول العرب: بعير مرجم، وناقة مرجم، أي ترجم به الفلاة. وقد ورد ذكر الرجم في السير في معلقة طرفة بن العبد وهو يصف ناقته:

واعلم مخروت من الأنف مارنٌ
عتيق متى ترجم به الأرض تزددِ

وقال أيضاً:

تدافع أجواز الفلاة وتنبري
لها مثل أنضاء القداح من السَّدر

أنضاء القداح: القداح الدقيقة، والسدر: هنا التشرد والحيرة، ويعني الشاعر أنها تتدافع بأقدامها مسرعة في عدوها، لاجتياز الفلاة وإنها قد هزلت فبدت كالقداح الدقيقة من شدة الضياع والسير على غير هداية. وقال أبو فراس الحمداني:

لئن لم أُحَلِّ العيس وهي لواغب
حدابير من طول السرى وظوالع

ولواغب: تعبة، وحدابير: الواحدة حدبار أي الناقة الضامرة، وظوالع: الواحدة ظالعة أي عارجة. والظَلَع: يكون بسبب العقر أو الحفاء أو أي ألم في قوائم الناقة، فيقال لها ظالع، وعادة لا تطأ بالقائمة التي تظلع بسببها على الأرض كثيراً، يقول كثير عزة في التائية:

وكنت كذات الظلع لمّا تحاملت
على ظلعها بعد العثار استقلت

ويقال: عتب البعير يعتب عتباً إذا ظلع أو عقل أو عقر فمشى على ثلاث قوائم يقفز قفزًا. ويقول طرفة بن العبد:

وإن شئت سامى واسط الكور رأسها
وعامت بضبعيها نجاء الخفيدد

ومعنى قوله: إذا أردت جعلت رأسها موازياً لوسط رحلها في العلو من فرط نشاطها وشدته وجريها وجذبي زمامها إليَّ، وهي تسرع في عدوها كأنها تسبح بعضديها مسرعة مثل إسراع الظليم (ذكر النعام). ويقول شبيب بن البرصاء:

إذا هبطت أرضا عزازا تحاملت
مناسم منها راعف وشجيج

ومعنى ذلك أن ناقة الشاعر إذا سارت على أرض صلبة تكلفت مشقة ذلك، حتى ولو خرج الدم وسال من أطراف أخفافها (المناسم). ويقول جابر بن حُنَيْ التغلبي عن ناقته:

أنافت وزافت في الزمام كأنها
إلى غرضها أجلاد هر مؤدّم

ومعنــاه أن ناقته تخــطر وتختــال في سيرها وهي مزممة، كأن هراً قــبيح الخلقة عظيم الهامة (المأدوم) في غرضها ينهشها بمخالبه فتهيج في عدوها. ويقول الأخطل:

صــعر الخــدود وقد بــاشرن هــاجرة
لكــوكب مــن نجوم القــيظ ملــتهــب

ومعناه أن المطايا تصعرت خدودها أي رفعت رؤوسها وأعنــاقها عند عدوها في الحر الشديد والأرض الملتهبة من الحرارة.

في الشعر النبطي. اختص سير الإبــل في التــراث الشعبي بــأسماء عرف بهــا، تُستمد تارة من سرعته وأخرى من بطئه؛ فالنجائــب سريعة كالصقر أو كالــنعامة، والتي هي أقــل نجابة تكون أقل ســرعة، وهكذا. ولا يكتمل ركض الــذلول حتى تبلغ خمس سنوات أي تصبح ثنية (تقلع الثنايا)، أما قــبل ذلك فلا يعتبر ركضهــا تاماً، ولا يزيد بعد أن تقلع الثنايا أي أنها تبلغ قــمة قدرتها على الــركض في هذه السن. وللإبل قدرة فائقة على الاتزان في السير إذ إنــها تستطيع الســير على ثلاث قوائم، فعندما تعقل إحدى قوائمها الأمامية فإنها تنهض من مبركها وتْعَتِب وقد تسير على ثلاث قوائم لمسافة طويلة.

ولسير الإبل أسماء وصفات تتصف بها النجائب من الإبل، وإذا ساروا فوق الركائب يظهرون ما يلبسونه إياها من دلال. ولذلك تختلف الإبل في مسيرها، منها السريع ومنها البطيء. ومن أنواع السير الجفيل والإهذال والدفلجة وفي المثل «ما كل غارة بدفلاج» والتدرهــم، وينطقــه بعضهم: الــدرهمه والدرهام، وهو من الفصيح.

وقد ورد في الشعر الشــعبي الكثير من القصائد التي تصف سير الإبل نورد منهــا قول الشاعــر طلال بن فريج بــن سعيد:

ياراكــبٍ من فــوق عجــل الزفــيفــي
مــامون قــطّــاع الــفيــافي عمــانــي
أبــو وروكٍ يــكــهـــلــن الــرديــفــي
أسرع مــن اللي كعــكعــه بالــعنــان
يــشدى ظــلــيمٍ شــاف زولٍ ذريــفي
أول مْــشِــكّ وتــالــي الــزول بـــان
أقــفــى يومّــي بــالجناح الخــفــيــف
الــريش هــزّه بــالــشــادي الــســمان

وقال شاعر آخر:

يــاراكـــب الــلـــي فــديــــده زيــن
مــا ضـــيّــقــت صــدر راعــيــهـــا
ممشى الــشــهر تــقــطــعه بــشــوين
والــشــمـــس مــا هَــفّ تــالــيــهـــا

وقال راكان بن فلاح بن حثلين:

وخــلاف ذا يــاراكــبٍ فوق هــيّــاف
بــتّيــل شــاي ومــقــتــفــيــه الولامــي
وليــا دعم زوله عــلــى حد الاســياف
قــلّــط ثــلاثٍ يــشــبــهــن الــولامــي

بـواطنٍ مـثـل الادامـي بالاوصـاف
وان زرفـلن يـشـدن لجـول النـعـام

وقال محدا بن فيصل الهبداني:

يـاراكـبٍ سربـالـةٍ تـقطـع الـبـيد
حـمرا ولا فـوقـه رديـفٍ محـنـها
أول نـهـاره خـل مشـيـه تـفـاديـد
وافهـق الى البـردين عقـبيـك عنهـا

وقال محسن بن عثمان الهزاني:

قـم يانـديـبـي فوق حـرٍّ هـجـيـنـا
ممـشاه يـومٍ للـهجـاهيـج عـشريـن
طـويـل بذلات الخـطـا بـالجـريـنا
بوعـه على بـوعات الانضـا ثمانـين

وقال محمد بن عبدالله العوني:

يـانـديـبـي فـوق مـوجـافِ
يـقـطـع الـديّـان بـاهـذالـه

وقال العارضي:

يـوم نط الـرقـيـبه راس مـشـذوبـه
قـال زلـوا وجاك الجـيـش زرفـالي

وقال خلف بن زيد الأذن العنزي:

ياراكـب اللـي مشـيهـا روج ورواج
حايل ثـمان سنين مـا احلى ظهرهـا
مع الـبياحـه مشيـها العـصر دفلاج
هـمـيـمـةٍ كـان المـغـنّـي نـزرهـا

وقال عادي بن محمد الرمالي:

راكـبٍ حرٍّ مـن الهـجن مـنحـوفي
يـقـطع الـدو الـبـعيـده بـذومـالـه

وقال محمد بن هادي القحطاني:

يـاراكبٍ مـن فوق طـلق الـذراعين
يطـوي مسيـر اليـوم في طول بـاعه
يـسرح مـن الطـفره بـلاد النـسيـين
يعـجبـك بالخـد السـماح ارتـباعـه

ومن شعر الحداء قولهم:

يـــاذودِ درهـــم جـــلّـــه
وإن درهـــم درهـــم كـــلّـــه

وقال أحد الشرارات «ما يدفق السمن درهامه». والدرهمه من أنماط سير الإبل؛ قال صقر المسعري:

كبيرة لابـاهر نافجاتٍ ضلاف العـاج
والى درهـمت لكن الادمـي تحاليهـا

وقال الرقاص:

هنـي من درهـمت بـه فرخـة الحره
معـطٍ مزاليـج والا مـعطي الجـودي

والدفلاج نوع من سيـر الإبل ذكره صقر المسعري فقال:

وين ابـالقـى فاطري زيـنة الـدفلاج
عجـله وريّـضةٍ علـى شف راعـيها

وقال خلف الأذن:

مع الـبياحـه مشيـها العـصر دفلاج
هـمـيم الـى مـن المـغـنّـي نزرهـا

والإدلاج: هو السير آخر الليل قبل طلوع الفجر، سواء كانت إبلاً أو غيرها وسواء كان سريعاً أو بطيئاً؛ قال أحد الشرارات:

ركبـت عليـهن تالـي الليـل وادلجن
والصـبح وانا بـوسط خولات عـايم

وكانوا ولا يزالون يحبون مسير الإبل ليلاً لبرودة الجو. ومن الأمثال قولهم «ظهورهن والهدان نيام».

ومن سير الإبل الزرفلة، وهو الجد في السير السريع تتابع فيها الخطوات بسرعة؛ ومن شعر الحداء قولهم:

إن زرفلن مع حاله
من له رديفٍ شاله

قال الشاعر عبيد النتيفي:

زينها لى زرفلت عقب ربع واردين
فيه مثل العلم طافح بحيالها

وقال ابن قويد الدوسري:

يبكن فعلي ناقضات الجعود
لى زرفل المظهور واللاش خلاه
لى زرفل المظهور قدم الجرود
كم واحدٍ باطرافهم قد طرحناه

وقال محمد بن سلطان المسعري:

إلى من نهمها قايم الحظ زرفلت
تسوق الركايب سوق من زود ما بها

ومن السير الزفزفة ويقولون: بعير زفزاف، ومن غناء النساء قولهن:

يابنت من يرمي والركب له زفزاف
يرمي ولا يخطي يقعد ولا ينشاف

والذميل (الذومال): السير السريع اللين ومن شعر حدائهم قولهم:

إن ذوملن والتمن
زهاب اهلهن تِمّن

وقال أحد الشرارات في الشل:

يشلّها شل الخلاوي ذلوله
إن هرّفت شمس المغيرب للادماس

وزاوع الناقة: أي حرك زمامها لتزيد في السرعة، وزوع الإبل: أي شتتها وفرقها. ويقال ناقة مواشك إذا كانت لا تتعب من السير.

والميح: ضرب من المشي ورهوجة حسنة. ماح يميح أي يتبختر. ومن أقوالهم «تميح روحها موح في مشيها».

والمرخاء: الناقة المسرعة نشاطاً. ويقال مرح البعير، ومرحت الناقة إذا جرت جرياً غير مستمر.

وإذا ريعت الناقة خوفاً من شيء، فركضت على غير اتجاه قيل رْثَعَت. قال محمد الفليو:

من اول ترثع على غير تقدير
واليوم ليته لو لمشى تقادي

فإذا ضرب البعير بقوائمه كلها على الأرض فتلك الربعة، ومنه قولهم «يصكه ربع»، فإذا جعل كأنه يضرب بقوائمه كلها فتلك اللبطة، يقال «مر يلتبط التباطاً».

والأحرد: البعير إذا سار ونفض إحدى يديه، ويحدث ذلك بسبب مرض يصيب اليد، ويقال: يخنف وخنف خنافا: وهو أن يمشي البعير على أحد

شقيه وأن يهوي بيديه إذا رفعهما. ويقولون «جت تحارد على جنوبها من العطش».

والشغور: هو ركض البعير حتى لم يدع جهداً قيل: تشغر يتشغر تشغراً. ويقول المثل: «ركبها شغرى». ويقال: ناقة طفاحة القوائم أي سريعتها. والخبب عدو للإبل تراوح فيه بين يديها، والإرقال نوع من السير، والرقلاء من أسماء الإبل.

ويسمون البعير الذي يبرك بعد مسير ولا يقوم حرونْ، فإذا ما ابتعد عنه صاحبه قام وتركه، والبعير المجون عندهم هو الذي لا يسير إلا بضرب. والشرود هو الجمل الذي يهرب عن صاحبه.

أصوات الإبل

من عادة العرب دائماً إعطاء اسم لكل شيء، سواء أكان مادياً أم معنوياً، ولم يخرقوا هذه القاعدة في أصوات الإبل فقد سموا كل نوع من أصوات الإبل سواء أكان مرتفعاً أم منخفضاً، في حالة الحنين والعطف أو في حالة الغضب والهياج، وكان كل إنسان يسمي هذه الأصوات أو ينعتها فتشيع تلك الأسماء أو الأوصاف في القبيلة ويتداولها الرعاة وغيرهم، ثم جاءت كتب اللغة فجمعت هذه الأسماء وتلك النعوت وصنّفتها. ويُعبر كل اسم أو صفة عن حالة من حالات الصوت، ولقد تفَّننتْ المعاجم في تصنيفها فجعلَتْ قسماً لأصوات الإبل، وثانياً لهدير فحول الإبل، وثالثاً لأصوات أنياب الإبل، ورابعاً لأصوات أخفافها، وخامساً للأصوات التي تُنادى بها الإبل وهكذا.

وفيما يلي تعريفات تكشف عن الفروق بين هذه الأسماء والنعوت:

وأول ذلك الإرزام وهو صوت تخرجه الناقة من حلقها لا تفتح به فاها، وذلك على ولدها حين ترأمه. وهو صوت منخفض قليلاً، وكثيراً ما ترزم الإبل عند العطش، تقول البادية ترزم أو تحتطم، وقال المتنبي:

أثْلِثْ، فإنا أيها الطلل
نبكي، وترزم تحتنا الإبلُ

ومن أصوات الإبل عموماً الأطيط، وهو ما تصدره من صوت إذا ثقل عليها الحمل؛ قال الشاعر:

ألست منتهياً عن نحت أثلتنا
ولست ضائرها ما أطّت الإبل

وإذا شربت الإبل فصوت مشافرها هو الشّيب، وإذا نقلت أخفافها فالصوت الذي تحدثه هو الهجيس، وإذا ضربت

الإبل فرغت وفتحت أفواهها قيل عجعجت.

ومن أصوات النوق الحنين، والحنين في الناقة أشد من الرزمة، وكلا الصوتين ناتج عن حنان أو فرح؛ قال ذو الرمة:

ونكباء مهياف كأن حنينها
تحدث ثكلى تركب البوّ رائم

والأد ترجيع الإبل الحنين في أجوافها، والإصغار حنين الناقة الخفيض، والإكبار هو حنينها العالي. والإهجال نوع من الحنين أيضاً فيه تعبير أكثر، وكثيراً ما تهجل الخلوج. أما البغام فهو تقطيع الناقة الحنين، فهي بغوم، وهو ناتج عن خوف أو حرقة؛ قال المتنبي:

عيون رواحلي إن حرتُ عيني
وكل بغام رازحة بغامي

فالبغام صوت الناقة بين الحنين والرغاء، وهو إخراج الصوت من غير فتح الفم. وهو عند البادية صوت الحوار أيضاً. قال القطامي (عمير بن شُيَيم):

فما راعها إلا بغام مطية
تريح بمحسور من الصوت لاغب

وقال جعفر بن علبة الحارثي:

وأصهب جوني كأن بغامه
تبغّم مطرود من الوحش مرهق

وقال عتيبة بن مرداس:

تسنحتُ حرجوجاً كأن بُغامها
أحيح ابن ماء في يراع مفجّرِ

ويقولون: سجعت الناقة، إذا مدت الحنين على جهة واحدة. وسجرت الناقة إذا مدت حنينها فطربت في أثر ولدها؛ قال الشاعر:

حنت إلى برق فقلت لها قري
بعض الحنين فإن سجرك شائقي

ويسمى حنين الناقة على ولدها أيضاً الهدجة، وناقة هدوج ومهداج، فإذا اشتد الحنين والترجيع فهو الهزيم.

ومن أصوات النوق أيضاً الحريق، وهو صوت صريف أنياب الناقة، وحرق الإنسان نابه إذا فعل ذلك من غيظ وغضب. والصريف: صوت احتكاك أنياب البعير؛ قال أوس بن حجر:

ينقّر طير الماء منها صريفها
صريف محال أقلقته الخطاطف

وإذا صوتت الناقة في ضجة فذلك الرغاء، وناقة كثيرة الرغاء أي كثيرة التصويت، ويكون الرغاء للناقة إذا خافت أو مسكت، وكذلك يرغو (يرغي) البعير إذا طرح أو أمسكت به فيتحول هديره إلى رغاء، وقيل في المثل «بَدَّل هديره برغا»، قال البحتري:

لئن كان مستغوي ثمود لقد غدت
على قومه بالأمس راغية البكر

وقال المتنبي:

ويبكي خلفهم دثر بكاه
رغاءٌ أو ثؤاجٌ أو يعار

والكتوم عكس الراغية، وقيل هي التي تشول بذنبها ولا تبشّر بلقاحها. كما أن الناقة التي لا ترغو (ترغي) تسمى الركوب.

أما صغار الإبل فمن أصواتها الإنقاض وهو لجّة الحيران. وإذا كان رغاء الفصيل ضعيفاً فهو العواء وتسميه البادية بغام؛ قال ذو الرمة:

به الذئب محزوناً كأن عواءه
عواء فصيل آخر الليل محثل

والهتهتة والهتيت هي صوت البكر وكأنه يعصر صوته. والتزغم في الفصيل حنين خفي، وتزغم الجمل ردد رغاءه في لهازمه، هذا الأصل ثم كثر حتى قالوا: تزغم الرجل إذا تكلم كلام المتغضب، وأنشدوا:

على خير ما يلقى به من تزغما

وقد وصفوا أصوات الفحول والجمال وأكثروا في ذلك ونوّعوا؛ ومن ذلك التدوية، يقولون دوّى البعير: سمع لهديره دوي، تقول البادية «قصف البعير» أو «تعصف البعير». والتدوية أيضاً صوت يصدره صاحب الإبل سواء عند شرابها أو جفالها تعرفه الإبل فترتاح له وتطمئن.

ومنه الترجيع وهو ترديد الصوت في الحلق، ورجّع البعير في شقشقته إذا هدر، ورجعت الناقة إذا حنت.

والجرجرة: تردد هدير الفحل في حنجرته، ويقال للفحل جُراجِر، وتخمط الفحل إذا هدر. والرجس الصوت الشديد من هدير الفحل، وكذا شدة الحنين عند الناقة. والزغد: الهدير الشديد. وقيل: إذا جعل البعير يهدر هديراً كأنه يعصره قيل: زَغَد؛ وأنشد:

بخٍ وبخباخ الهدير الزَّغْد

والزغردة: ضرب من هدير الإبل. وقد زغرد الفحل: هدر في غلاصمه ورده في جوفه. والشحشحة في الهدر ما ليس بخالص من الهدير، وأنشد:

فردّد الهدر وما إن شحشحا

وقبَّ ناب البعير: إذا سُمعت قعقعة أنيابه، والاسم منها القبيب، والقبقبة صوت هدير الفحل من الإبل، وقيل هي اضطراب لحييه إذا هدر، خاصة إذا أسرع في مشيته، وهي أيضاً القضع أو القضيع وهي صوت لحييه إذا اصطك بعضهما ببعض حين يركض هاجماً أو حين يطلق من مربطه فيركض نحو القطيع.

والقرقرة: هدير البعير إذا صفا صوته ورجّع. وقد ورد عنهم بيت شعر سار مسير المثل وهو:

ربَّ عجوز من نُمَير شهبره
علمتها الإنقاض بعد القرقره

والقرقرة: هنا كثرة الكلام.

وإذا هدْر البكر والفحل الذي ليست له شقشقة فذلك الغطيط، وقيل: هو الهدر في الشقشقة، فإن لم يكن في الشقشقة فهو هدير، والناقة تهدر ولا تغط؛ لأنه ليس لها شقشقة، تقول البادية «يزجم القعود زجم». قال امرؤ القيس:

يغط غطيط البكر شد خناقه
ليقتلني، والمرء ليس بقَتّال

والأخرس من الفحول والأفحم سواء، وهو الذي يهدر في شقشقة ليس لها ثقب، فهي في شدقيه لا تخرج، ولا يخرج الصوت منها؛ لأنها ليست بمثقوبة، وتقول البادية أعجم، وهم يستحبون أن يرسلوا الأخرس في الشول؛ لأنه لا يكاد يكون إلا مئناثا، وناقة خرساء: لا ترغو.

والقشقشة: الصوت في محض الشقشقة قبل أن يزغد بالهدير، فإذا ردّد الهدير فتلك الكهكهة، والقَصف هو شدة الهدير، وصوت صريف أنيابه أو الهدير في الشقشقة. والهجهاج صوت هدير الفحل.

والهدير صوت في غير شقشقة، وفي المثل «كالمهدِّر في العنة» يضرب لمن يصيح ويجلّب ولا ينفذ قوله ولا فعله، كالبعير يُحبس في العُنة (الحظيرة) ممنوعاً من الضراب.

وأول الهدير الكشيش فإذا ارتفع قليلاً فهو الكتيت ثم الهدير، وأعلاه البذخ، وبعير شديد الهدير، وفحل هداهد، أي كثير الهدهدة: أي يهدر في الإبل ولا يضربها. وأنشد:

فحسبك من هداهدة وزغد

أما البخبخة فهي إخراج الماء مع الهواء من الفم وتسمى الزوير، وهو صوت الهدير قبل إخراج الهدارة.

والسَّكوت: هو الجمل الصموت عند الرحلة والركوب. والصهميم: البعير الذي لا يرغو (لا يرغي) ويسمى الأعجم والأزيم والأزجم والأسجم. والضموز أيضاً البعير الذي لا يرغو يقال له ضامز. والناقة الضامز أو الضَّموز التي تضم فاها فلا ترغو (لا ترغي).

أما الضبح فهو صوت إصدار الهواء عند الفزع بلا رغاء. قال تعالى في صفة الخيل: ﴿والعاديات ضبحاً﴾ (العاديات: ١).

ويلحق بأصوات الإبل تلك الأصوات التي تنادى بها، سواء لورود الماء، أم للتوجه إلى المراعي، أو للعودة إلى خيام أصحابها ومنازلهم، ولكل راعٍ رموزه

الخاصة التي ينادي بها إبله، ويدعوها بها إلى واحد من الأغـراض الخاصة. وكما تختلف النداءات من راعٍ إلى آخر تختلف كذلك من قبيـلة إلى أخرى، ومن إقليم إلى آخر. وهذه العادات في مناداة الإبل بأصواتٍ معينة كانت معروفة منذ القديم، وقد جمـعت منها كتـب معاجم المعانـي ومعاجم الألفاظ قـدْراً لا بأس به، نذكر منها كتاب المخصص لابن سيده في الفصل الذي خصصه لأصوات الإبل وفي القسم الذي سمـاه (باب الصوت بـالإبل) وقد جمع طائفة منها وحكاها بلغة أصحابها.

أما في العصر الحديث فخير من تكلم على الأصوات التي تنادى بها الإبل علي محمد الحبردي في كتابه الإبل في الفصل الذي عنونه «نداء الراعي للإبل» وجاء فيه:

يركب الراعي الـرحول (القعده)، وهي تلك الناقـة التي يضع فوقها أشيـاءه مثل: الـصميـل والطعـام والعقل والتوادي وبقية أشيائه، وهذه الرحول تتبعها الإبل أينما ذهبت، يركبها الراعي ويصيح منادياً للإبل فتترك المرعى وتـتبعه أينما ذهب، ولكل إبل نداء، أو أنه فـي الواقع لكل صاحب إبل نداء يسمي به إبله مثلما تسمي القبائل أنفسها ببعض الألـقـاب. وهذا الـنـداء خـاص بصاحب الإبل تعرفه إبله ويتوارثه أباً عن جد ويسمى النداء المشايعه. وكل صوت أو نـداء يطلقه الـراعي لإبله يسمى في بادية الجنوب تكلام. وتختـلف هذه الأصوات حسب مـا عود الراعـي إبله عليه. فـإذا كانت بعيدة عنه في المرعى قبل الصباح فإنه يرفـع صوته بالـنداء حسب بـعدها وقربـها منـه، وقد ينادي كـل ناقة باسمها. فإذا كان النداء لعودة الإبل من المرعى يقال «ينقر لها»، وإن كان النداء لشرب الماء يقـال «يدوّه لها»، فإذا أراد حلب إحداها فيقال «ينقض لها» فلا تهابه. وعندما ينادي صاحب الإبل إبله بـهذا النداء فإنها تـتوقف عن الـشرب إذا كانـت تشرب ولو كانت ظامئة، وتتوقف عن الرعي ولو كانت جائعة، وتلتفت نحو صاحبها، وتبدأ بالحنين. والحنين صوت تصدره الإبل ولا يصدر عن غير الإبل، تعبّر عن تجاوبها مع صاحبها، وعن محبتها له، فتنطلق معه حيث يتجه، تاركـة وراءها الماء والمرعى.

وإذا أراد الـراعي الـورود إلى المـاء والرواح إلى منازل العرب ناداها نداء الرواح (نـقر لها)، فـاتجه بهـا من المرعى إلى مورد الماء أو المراح، وهذا

النداء أو الحداء تعرفه الإبل فتترك المرعى وتقتفي أثر الراعي نحو مورد الماء، وللصدر من الماء نداء تترك بعده الماء وتنهض من مباركها متجهة إلى المرعى، ويسمى نداء الصدر من الماء.

ولكل إبل نداء تعرفه مثل الاسم العام لها جميعاً خاص بهذه الرعية دون بقية الرعايا الأخرى، ولكل رعية من الإبل نداء معين. فيقال هذه مشايعة (آل فلان) وتلك مشايعة (زيد) وتلك مشايعة (عبيد). والمشايعة مثلها مثل الوسم الذي يوضع علامة على الإبل لتمييزها عن الاختلاط والاختلاف، ولكنها تختلف عن الوسم إذ إن الوسم كيٌّ بالنار والمشايعة بالصوت تخص هذه الإبل وصاحبها وتميزها عن غيرها. فلو فرضنا أن عدة رعايا من الإبل اختلطت، وأراد واحد من الرعيان (الرعاة) الانفراد بإبله فإنه بدلاً من أن يستخرجها واحدة واحدة، بدلاً من ذلك فإنه يركب ظهر رحوله أي (القعده) ويبدأ يصيح بمشايعته لإبله ويتجه إلى الناحية التي يشاء، فتترك إبله بقية الإبل التي كانت مختلطة معها وتتبعه إلى الجهة التي يرغب أن يتجه إليها؛ لأنه ناداها بهذا النداء الخاص بها، أي كأنه قال (لا يتبعني سوى إبلي التي تخصني)، فتتبعه إبله. أما غناء (حداء) الرواح وهو حداء للإبل بأن تتجه من المرعى بعد غروب الشمس إلى منازل أهلها كي تمرح (تبيت) في مراحها قريباً من أهلها أثناء الليل وهو حداء تطرب له الإبل فتتجه جميعها بأثر الصوت عندما يحدو به الرعاة ومثال ذلك قولهم:

حدا الوضحا وين
يابنيه حدا الوضحا وين
اربعه واثنين
وقرونك اربعه واثنين
مزيونه مار أبوك عفين
مار ابوك عفين ؟!!

(بويه بويه بويه) أو (مله مله مله) وكلمة (بوه) تعني البويضاء تدليلاً وتحببا لها وكذلك (مله مله) تعني المليحاء، ويقولون كذلك:

وضحا بن عايش
وضحا بن عايش
يابنيه للحجب نايش
وقرونك للحجب نايش

إرشره إرشره (أي تعالي ياشرهه) وشرهة اسم ناقة من النوق وحين

تسمع النداء تترك المرعى وتتبع ذلك الصوت الذي تعرف أنه يريد منها أن تعود إلى مبيتها أثناء الليل وحتى الصباح. وعند الفجر تحن المخاليل في وقت واحد، والبدو يؤقتون بهذا الحنين فيقولون وقت (حنين المخلول) أي مع الفجر فتتجاوب بقية الحيران والأمهات بالإرزام ويكون هذا الوقت هو وقت إطلاق عقل الإبل وشد الرحول ومن ثم جمع العقل حزمة واحدة ووضعها مع بعض الشمال القديمة على ظهر الرحول بعد وضع الحداجة، والغاية من وضع الشمال القديمة على ظهر الرحول (القعده) هي جعل الحيران تشم رائحة أمهاتها في هذه الشمال فتتبع ناقة الراعي (القعده) (١٤٠٩: ٦٤-٦٨).

الحداء

ومما يلحق بأصوات الإبل والأصوات الخاصة بندائها ما يسمى الحداء، وهو عادة عربية قديمة، ويسمى هذا الغناء إذا كانت الإبل ترد الماء غرهاد. والحُداء على وزن (فُعال) من قولهم: حدوت الإبل أحدوها حدواً؛ قال الراجز:

حدوتها وهي لك الفداء
إن غناء الإبل الحداء

ومن أمثال العرب «كالحادي وليس له بعير». وأول الحداء الهيد وذلك أن الحادي إذا أراد الحداء قال: هِيد، هيد، ثم زجل بصوته، قال الراجز:

وقد حدوناها بهيد وهلا
حتى ترى أسفلها صار علا

ويقال: إن الحداء هو المنطلق الأول للشعر العربي. ومن ارتباط الإيقاع بالإبل وسيرها أن العروضيين اتخذوا من جريها (الخَبَب) اسماً لإحدى صور البحر المتدارك (فعلن) ثماني مرات. وقد عُرف من الحدَّائين في الإسلام البراء بن مالك، وأنجَشَة، وقد كانا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فجعل البراء يحدو بإبل الرجال، وأنجشة يحدو بإبل النساء حتى إن رسول الله ﷺ قال لأنجشة وهو يحدو «رويداً ياأنجشة لا تكسر القوارير» يعني ضعفة النساء وقيل: إن عبدالله بن رواحة كان يحدو بين عيري الرسول ﷺ وعامر بن الأكوع وعمه سلمة بن الأكوع، ومنهم عدي بن أبي الزعباء حادي جيش المسلمين في عودته من بدر منتصراً، وغيرهم، ومن أشعارهم في الحداء قول الحادي:

دع المطايا تنسم الجنوبا
إنّ لها لنبأً عجيبا
حنينها، وما اشتكت لغوبا
يشهد أن قد فارقْت جنيبا

لـو تـرك الـشـوق لـنـا قـلـوبـا
تـلـتـذه بـرداً ونـقـعـا
إذاً لآثـرنَ بـهـن الـنـيـبـا
شـوقـاً إلـى الـنـغـم الـتـي
إن الـغـريـب يـسـعـد الـغـريـبـا
أطـربـنـهـا لحـنـاً وسـمـعـا

ويروون أن رجلاً من حداة الإبل اسمه سلام اشتهر بالحداء حتى ضرب به المثل، وروي في سيرته أنهم كانوا يعطشون الإبل أياماً ثم يوردونها الماء، ويقف سلام من ورائها يحدو لها فتنصرف عن الماء إليه. يقول الشاعر كشاجم محمود بن الحسين الشاعر العباسي المتوفى سنة ٣٦٠هـ في فائدة الألحان، مشيراً إلى أن صوت الحادي قد يذهل الإبل عن شرب الماء بعد أن تكون شرعت في الورد:

إن كـنـتَ تـنـكـر أن فـي الـ
ألحـان فـائـدة ونـفـعـا
فـانـظـر إلـى الإبـل الـتـي
لا شـك أغـلـظ مـنـك طـبـعـا
تـصـغـي لأصـوات الحـداة
فـتـقـطـع الـفـلـوات قـطـعـا
ومـن الـعـجـائـب أنـهـم
يـظـمـونـهـا خِـمـسـاً ورِبـعـا
فـإذا تـوردت الحـيـا
ض وشـارفـتْ فـي المـاء كـرعـا
وتـشـوّفـت لـلـصـوت مـن
حـادٍ تـصـيـخ إلـيـه سـمـعـا
ذهـلـتْ عـن المـاء الـذي

ويقوم مقامه عند العامة الهجيني قال خلف الأذن:

مع الـبياحـه مشيـها العـصر دفلاج
هـمـيـم لى مـن المـغـنـي نـزرهـا

وقال فهيد السكران:

وجنـا علـى حس الـغنـا تستلـجا
والـكـور خـطرٍ مـن قـراهـا يمـوج

وقال مريبد العدواني:

مرّات نـلفـي بالـغنـا والتـصاويـت
ننحى الروك بنحور عجلات الاهذال

ويقول الحبردي:

إن الحداء كذلك هو ذلك الصوت الذي يطلقه الراعي أو المالك إلى الإبل لتتبعه إلى المرعى أو للعودة منه أو لدعوتها إلى الشرب. ولكل صاحب إبل نداء مميز تعرفه إبله وقد يكون متوارثاً في القبيلة أباً عن جد، وقد استخدمه وعرفه العرب منذ القدم. وبواسطة الحداء تعرف الإبل أصحابها وما يريدونه منها، وهو في الحقيقة دليل على قوة ذكاء الإبل (٩ ١٤٠ : ٦٤).

وذكر أبو سويلم بعض ما يقال عند دعاء الإبل وزجرها، مثل: جوه، وجها،

وحل، وحي، وعيه، وعاه، وهيب، إخ، إخ، هاه، ياه وياه.

وورد في كتب التراث أن الحداء في العرب كان قبل الغناء، وكان سببه أن مضر بن نزار بن معد قد سقط عن ظهر بعير في بعض أسفاره فانكسرت يده فجعل يقول: يا يداه، يا يداه، وكان من أحسن الناس صوتاً فاجتمعت الإبل وطاب لها السير، فاتخذه العرب حداء، فجعلوا كلامه في أول الحداء، فمن قول الحادي المتغني للإبل: يا هاديا يا هاديا ... ويا يداه يا يداه.

ونقل الشراري عن جواد علي قوله:

> والحداء هو من أقدم أنواع الغناء عند العرب، يغنىّ به في الأسفار خاصة، ولا زال على مقامه ومكانته في البادية حتى اليوم، ويتغنى به في المناسبات المحزنة أيضاً؛ لملاءمة نغمته مع الحزن. وكان الحداء أول السماع والترجيع في العرب، ثم اشتق الغناء من الحداء، اشتقه جناب ابن عبدالله الكلبي، فغنى النصَب، والنَصَب من أوجه الغناء الجاهلي، وهو غناء الركبان وغناء الفتيات والقينات، يغنّى به في المراثي، ولذلك دعاه إسحق بن إبراهيم الموصلي الغناء الجَنابي نسبة إلى ذلك الرجل، وهو الذي يقال له المراثي، ومنه كان أصل الحداء، وكله يخرج من الطويل في العروض (١٤١٢: ٣١٣-٣١٤).

يتفنن الحادي في كلمات تجلب كافة الرعاة الآخرين، وكذلك القاطنين على المورد، والذين يأتون عادة يستمتعون بما يقوله الحادون من أنغام وكلمات شجية ومعان ذات أبعاد تتعلق بشؤون حياتهم ومعاشهم. ويتفنن الحادون في صياغة الحداء بشكل مشوق يتضمن طرح مشكلة أو قصة ما تحتاج إلى تكاتف الجميع لحلها. أو يطرحون قضية لحلها جماعياً، أو يتبنون عادة قبائلية تذكر النشء وتعلمهم أمور حياتهم وكيفية التعامل حسب عادات وتقاليد القبيلة.

قال سعد الصويان «وكان الرجز يستخدم في الحداء منذ الجاهلية وبنفس الطريقة التي كانت سائدة في بادية الجزيرة حتى وقت قريب. ينقل صاحب كتاب الأغاني عن ابن حبيب قوله: كانت العرب تقول الرجز في الحرب، والحداء والمفاخرة وما جرى هذا المجرى» (١٩٨٨: ٢٧).

وهناك نماذج لقصائد الحداء ترددت في كتب الإبل وفي كتب الشعر الشعبي، نقتطف منها قولهم:

ما قلت لك يا مضحي
اليوم ورد الوضحي

وقولهم:

حمرا ترص الجالي
رص الوديد الغالي

وقولهم:

يا قليّب أبو جفين
يا مرحوم الوالدين

وقولهم:

يابنت يا نصّابه
ترا الحياة نْهابه

وقولهم:

عمراً عليه طْلابه
غزا عليه وجابه

وقولهم

هب الهوا شمالي
هلا ياريح الغالي

وقولهم:

يا الله صباح الخيرِ
عليَّ وعلى غيري

وقولهم:

يا الله عليك ارواهن
غيثاً يبل ذْراهن

وقولهم:

البل عطايا ربي
تدعي البغيض يحبي

وقولهم:

ياعشير الحطابات
نياقك ما هن شرّابات

وقولهم:

طاح المطر واشلنا
ونجدد منازلنا

وقولهم:

يا شمّخ العشاير
يامجوّزات البايِر

يقول القويعي عن الحدي أو الهوبلة:

الحدي لإخراج الماء من البئر من الغناء الشعبي الذي بدأ يزول وينقرض شأنه شأن غيره من أغاني تراثنا القولي (لا يزال الحداء مستخدماً في البادية). وكانوا يقومون بتأديته عند سقاية الإبل، واستخراج الماء من البئر بواسطة الدلو التي يطلقون عليها اسم القلص، وهي كبيرة الحجم؛ ولهذا فهي تستقبل بواسطة اثنين من الرجال عند حافة البئر لحملها وصب الماء منها. ويسمى هذا الغناء جذبًا إذا كان المغني يجذب الدلو بنفسه من القليب، فإذا كان الحبل على المحالة سمي الغناء

(هيــاباً)، أمــا إذا كانــت الدلــو تسحب بمـطية وكان الحبل عـلى السانية، فإن غناء الشخص الذي يتلقـى الدلو ويصبه في الحوض يسمى (عوبال). وهناك من يقول الهـياب إذا كان الشـخص يذب الدلو بيده أو يعاونه شخص آخر، كذلك إذا كانت الـبئر قليلة الماء واحتاج الأمر إلى نزول شـخص إلى قـعرهـا، ويسـمى المياح، ليغرف الماء بإناء ويصبه في الدلو أو الغرب، فإن غناءه يسمى أيضاً (عوبال).

وأورد القويعي بعض الأهازيج التي كانوا يـستخدمـونها في حـدائهم مثل قولهم:

وضـــحــــا حـــلايـــا نـــوره
ووســـيــــمـــهــــا الـــبـــاكـــوره

وقولهم:

وضـــحــا ســنــامــه يــومــي
مــثـل الــقـمــر بـغـيــومـي

وقولهم:

صـــبّـوا لــنـــيــاق الـــشــايــب
شــقــح وبـــهـــن جـــنـــايـــب

وقولهم:

غـــروٍ عــلـــى ام رْضـــمـــه
ريـــحـــة زبــاد بـــشـــمـــه

وقولهم:

مــتـــى يــضـــيـــح الـــبــارق
عـــن هــالــقــلـيــب انـفــارق

وقولهم:

الاشـــقـــر المـــنـــقـــوضِ
عـــلـــى ردايـــف مـــوضـــي

وقولهم:

الـــبـــرق ويـــن تـــخـــيـلـــه
عـــلـى ســـجـــا وســـحـــيـلــه
مـــلـــحــــا تجـر خـْطـــاهـــا
والمـــنـــخـــره مـــا اضـــمــاهـــا
وام الجـــــواعــــر مــــاهـــا

وقولهم:

خـــلّـــه تـــرص الجـــالِ
رص الـــعـــزب لـــلـفـــالــي

وقولهم:

صــبـــوا لـــراعــى الـكـــاســه
شـــقـــرٍ ذوايـــب راســـه

وقولهم:

يـــابـــنــت شـومــي شــومـي
لـــلـــي ذلـــولـــه تـــومـــي

وقولهم:

لـــى عـــاد مـــا تـــرويـــهــا
جَـــنّـــب وانـــا راعـــيـــهـــا

وقولهم:

وضــحـــا ســنـــامــه عـــالـــي
وردت عـــــلـــــى أم اوعــــالِ

أغاني الرعاة

عندما تبدأ الإبل في ذهابها للمرعى صباحاً، فإن أبناء البادية في الجنوب ونجد عادة ما يغنون بألحان الهجيني المعروفة. وفي الجنوب يغيرون الألحان في الظهيرة إلى نوع يسمى الطرّاق، وهو من أنواع الهجيني، والمسحوب. وعند العصر يغنون بلحن يسمى الدندان ومن أمثاله:

ميح ياجبل من طريق البل والا توط
القلب لى انوى بنيّه محط الارض محط

وقولهم:

ياهل الديار البعيده ليتكم تقربون
تمشون الايام واطراف الليالي تجون

وقولهم:

ياونتي ونة الهازل إلى ناط رد
إن ورد ما يشرب الما وان صدر ما ورد

وقولهم:

قالوا لي الناس يالسارق وانا اللي بري
السارق اللي على بوقة خويه جري

وقولهم:

ياهجن ياماشيه ياناصيه حضرموت
هو صدق ياناس من فارق وليفه يموت

وقولهم:

ياويلي من الموت والنود تذري عصير
ياليت من له جناحٍ يم خله يطير

وقولهم:

من ضيقة الصدر عيني باح مكنونها
تكفون ياهل المعرفة لا تبكّونها
ما تبكي الا على ناس يحبونها

أما قبل مغيب الشمس فإنهم يلعبون بلحن يسمى الرواح وهم في طريق عودتهم لمضاربهم، ومن أمثال هذا اللحن:

ياشلي العرب شب لي نارك
من مبان الخلا ينبني جارك

وقولهم:

ياوجودي على زين لاماهم
في المرابيع والا على ماهم

وقولهم:

ياهل الهجن ياللي بها اروافي
شرّعوها على المشرع الصافي

وقولهم:

ياغزال ثرا الميل بعيونه
ياهله بالثمن ما تبيعونه

وقولهم:

ياهلي ما تشوفون ما جاني
ما ذبحني ولا جاني

وجدير بالذكر أن الدندان والرواح لا يعرف إلا لدى الدواسر وآل مُرَّة. وهو في الأساس من ألحان الساحل العماني، خاصة المناصير والعوامر والدروع، ويسمونه التغريد، وإن كانت قبائل قحطان وشهران ويام يلعبون الرواح

إلا أنه يختلف في لحنه عن رواح الدواسر وآل مرة، وأبياته لا تتعدى بيتين إلا ما ندر، ولا يعرف قائله، فهو لا ينسب لشخص معروف ويبدو أنه متوارث من جيل إلى آخر.

ويقول السويداء عن الحداء: إذا صاح راعي الإبل بصوته تجمعت عليه من أقاصي مرعاها.. ومتى صاح الراعي بصوته فإن الإبل تحاول قطع الشكايم والعقل والقيد إن كانت مربوطة أو معقولة أو مقيدة. وإن كانت في المنحاة (السانية) بدأت تتلفت يكاد صوت الحادي يمزق أفئدتها ويخرجها عن طورها، وتكاد تخرج من المنحاة، فإن لم تستطع ألمت بها حالة هستيرية لبعض الوقت، ثم تنزف عرقاً وتنحدر الدموع من عينيها جزعاً على عدم المقدرة لتلبية هذا النداء الحبيب إلى نفسها. ويضيف السويداء أن الحداء على نوعين؛ الأول نوع من الغناء المجرور والذي يفصل بين البيت والآخر صيحة طويلة حادة مثل:

يافاطري يا شعيله
حنا سرينا الليله

وهذا الحداء يتم في المرعى عندما يريد الراعي العودة بإبله إلى مضارب البيوت، ولكل راعٍ صوته المميز الذي تعرفه إبله.

أما النوع الثاني من الحدا: فهو الحداء الذي يطلقه راعي الإبل عندما يريد أن يسرح بها (الذهاب للمرعى) فيشايع لها. ويتكون من كلمات يفصل بينها صيحات طويلة حادة مثل «دوها... العليا... واه. دوها... العليا... واه». ويردد الراعي هذا الحداء سواء في مضارب البادية أو في القرى، غير أنه في القرى يختلف بعض الشيء حيث إن له صيحتين فقط للمرة الأولى والتي تعني نهاية سائق السواني من السياق (السني) ويحط (يضع، يُنزل) عنها عدتها ويحضرها في مكان تجمع الإبل، وبعدها يبدأ الحادي بحدائه للمرة الثانية لثلاث صيحات، وهذا دليل على أن الإبل ستتحرك سارحة (متجهة) إلى الفلاة. ومن الحداء لسقي الإبل قولهم:

يادلونا بالليه
صبي على الرعيه

وقولهم:

البل ما يرويها
إلا زعب راعيها

وقولهم:

هب الهوى شمالي
جانا بريح الغالي

وقولهم:

ياما احلى سقي الذودِ
واسقيه أنا بعضودي

وقولهم:

هــذي الــوضــيــحــا تــردي
تـــــقـــــول هـــــذا وَرْدي
جـــانـــا غـــزال الجـــردي
يـــلـــبـــس ثـــويـــب وَرْدي

أما عن الحداء للسقي (سقي الإبل) فيقول الحـبردي: إنه عندما يـرد الرعاة على موارد المـياه فإنهم يحـدون بحداء خاص لزعب المـاء (إخراجه من البئـر) بواسطة الدلو أو القلص ونزفه (سحبه) من الآبار وصبه في القرو (حوض الماء) أو المشرع... ولهذا العمل حداء خاص تطرب له الإبل وتفرح بالماء بعد العطش وهذا الحداء مثل قولهم:

وضـــحـــا ســـنـــامـــه يـــومـــي
مـــثـــل الـــقـــمـــر بـــغـــيـــومـــي

وبعد أن ينزعوا الدلو من جمة البئر (قاعها) حتى المقام تندلق (تصب) الدلو إلى مجمع الماء الذي تـشرب منه الإبل الظـامئة فيـعودون مرة أخرى لـلحداء فيقولون:

يـــاشـــيـــقـــر الـــذوايـــب
قـــلـــبـــي غـــدا لـــهـــايـــب

وقولهم:

يـــالابـــس الاحـــيـــمـــر
غـــضٍ تـــوّه وضـــويـــمـــر

وقولهم:

أم الـــهـــدوم الـــســـمـــر
بـــلـــتـــنـــي عـــلـــى عـــمـــري

(١٤٠٩: ٦٩-٧١).

أما الشراري فيقول عن الحداء إنه أقرب ما يكون للنـظم البسيط المكون من بيتين من الشعر بقافيتين. وبصوت يردده اثنان، وأحيانا عندما تكون الدلو كبيرة يردده أربعة من الأشخاص بصوت يسمعه كافة الواردين على العد (البئر)، كما يسمعه أيضا البادية القاطنون على نفس العد، وقد يتناهى صدى صوتهم أثناء الليل أو مع الفجر إلى مسافة بعيدة قـد تـصل إلـى أكـثـر مـن عشـرة كيلومترات.

ويضيف الشراري أنه لا يتقيد الحداء بلحن واحـد، بل تتعدد ألحانه حسب الحادي وقدراتـه الصوتية وتـفننه بـها. وتخـتلف ألحان الحـداء من قبيـلة إلى أخرى، إضافة لذلك فإن حداء الرحيل مثل حداء الموارد، ولـكنه يختلف عنه في نمـط الكلمـات واللحـن وأسلوب الحـادي، بسـبـب اخـتلاف المـوضـع والمناسبة.

ويقول كذلك: إن من حـداء الإبل حداء المراح لحراسة الإبل، وهو خاص للرعاة جرت به العادة أن يقال عند الإبل ليلاً، وذلك لـلحفاظ عليهـا وليسمعه

الحوف، وهـم مجموعـة غزاة صغيـرة تنهب الإبل ليلاً أو نهاراً ويطلق عليهم الحنشل، وكانـوا ينتشرون في وقـت المغـازي خلال عهد الـفوضى وافتـقاد الأمن. وعندما يتربص الحوف ليلاً فإن هدفهم هو إطلاق عقل الإبل ثم سوقها والهرب بها. وتسمى هـذه الطريقة في اللصوصية أيضاً عندهـم الرقع، ويعني النهب خلسة. وقد قالت إحدى نساء الشرارات:

خـزايـر الـلـي يـحـوف بـلـيـل
طـلايـق اعـقـال بـالمرحـى

ويتميـز نمط حداء الحراسة للإبل بإنشاد أبـيات الشعر القصـيرة بحيث تكون بيتاً أو بيتين من الشعر، فالبيت عادة كصيغة حداء الغارة على الجيش (الإبل)، والبيتان كصيغة حداء الغارة على الخيـل. وقد يرد الحداء بصوت طويـل (مرتفـع) بين فيـنة وأخرى، ويكون الهدف من هذا الحداء إرهاب الحائف والغازي وتحذيراً أو تنبيهاً للرعاة وأصحاب الإبل بألا يغفلـوا أو يناموا ليلاً. وفي حدائهم هذا يقولون:

يـــانـــايمٍ عـــن فـــاطـــره
يـــاعـــل عـــيـــونـــه لـــلـــســـهـــر
حـــلـــوبـــتـــه ركـــوبـــتـــه
جـــلـــوبـــتـــه يـــوم الـــدهـــر

وقولهم أيضا:

يـــاهـــجـــرة دونـــهـــا حـــراس
والمـــوت عـــنـــد اركـــانـــهـــا
يـامـــا قـــطـــع عـــنـــده مـــن راس
لْـــيـــا ادرجـــت حـــيـــرانـــهـــا

وهذا الحداء يمكن أن يكون عندهم من الكلمات التحذيرية كقولهم «العدو معثور».

ومن الأمثال عند الشـرارات قولهم «ما بي حدا ومتح» يضرب للعاجز عن الجمع بين أمرين أو لصعوبة الجمع بين أمرين.

ويضيف الشراري أن للغناء والهجيني أنواعاً، فمن الغناء ما يسمى بالحنده على الجيش الذي يُـجهز للإغارة أو الغزو. قال الشاعر:

يـــوم لحـــقـــوا هـــل الـــبـــل
يـــلـــعـــبـــون الجـــديـــبـــه
يـــوم (فـــلان) يـــحـــول
والـــردى يـــتـــقـــي بـــه

ويقول أيضا: أن الشياع (المشايعة) هي من شاع أي عرفت الإبـل نداءها الخاص بها، والمشايـع: هو الشخص الذي يصيح بالإبل لتجتمع وتنساق. وشايعت بها (بالإبل) دعوتها. والمشياع المناداة للإبل. ومن الأمثال قولهم «ما تدري ويـن شياعة الـبركه» وقـولهم

«هنفٍ على حسن المشايع يجن». ولكل إبل مشايعة معينة خاصة بها تعودت عليها بحيث إن الراعي عند ندائه للإبل بالمشايعة الخاصة بها قد ترجع من مسافات طويلة، ولا يستطيع أن يمنعها أحد من العودة لراعيها. وأثناء الغزو فإن الراعي إذا استطاع النجاة والهرب على رحوله من الغزاة وقام برفع صوته بمشياعة إبله، فإنه لا يستطيع أحد أن يردها أو يمنعها من العودة إليه واللحاق به، ومن أقوالهم «الله يجيب شياعة البركه». ومن شعر الدحه قولهم:

الليله دحّه ومزاحي
لمن الصبح ينباحي
لمن راع البل يشايع
وراع المعزا يْتاحي

وجاء في كتاب الإبل للشراري أيضا: إن للإبل ألفاظاً معروفة تستجيب لها، ومن بعض تلك الألفاظ قولهم:

دهى: وهي كلمة لضرب من المشايعة للإبل، و«دهي» عند تكرارها هي: هيد (هـ ي د هـ ي د).

أره: لفظة تستعمل لنداء الحوار الصغير لتدر عليه أمه ويسمى التدهرش.

أقه: كلمة تستخدم لطرد الجمل، وفي المثل قولهم «أقه.. تقوم الزمل كلها»، ويقولون أيضا «يُكبر الجمل بقولة.. أقه».

كله: كلمة تقال للجمل المتصدي لجمل مهاجم.

حي: كلمة تقال لحث الناقة على السير.

حيت: كلمة زجر لحث البعير على القيام من مبركه والسير، وفي المثل قولهم «حيت جميلي بس أنا».

إخ: مأخوذ من صوت الجمل والناقة عند الإناخة وتقال للإبل لتبرك، وفي المثل قولهم «ما يعرف الناخه» و«ما تعرف الناخه».

حرس: كلمة زجر لطرد الإبل.

حد: كلمة زجر لطرد الناقة.

يه: كلمة زجر تقال لترجع الإبل لبعضها.

كشوه: كلمة زجر أيضا للإبل (١٤١٢: ٣٢١).

ويقول السويداء: أن يَهْيه: ياه، ياه: من دعاء الإبل ويهيه بالإبل دعاها، أي قال لها «ياه، ياه»، أما نداء الإبل فيقولون دوهاه، ودوها الرجل لإبله نادى لها: دوهاه دوهاه، وذلك لتنقاد معه للمرعى. ويسمى الوقت الذي ينادي فيه الراعي إبله بالمسير دوهاة الراعي، وينادي الراعي للإبل «دوهاه،

دوهاه، العـليا» ليذهب بـها للمفلـى (المرعى) أو لـلعودة بهـا إلى المنزل. وكلمة «جها» لزجر الإبل وهي للجمل على الأخص والمثل يقول «يكبر الجمل بقولة جْهَا».

ومن تأثير التَّدْوِيْه أو الدعاء للإبل ما حدث لـركب كَانوا مسافـرين بين مدينة سميراء ومـدينة الروضة بمنطقة حائل في أيام السلب والنهب. فطلع عليهم قطاع طرق (حنشل) وسلبوا ما معهم من ركاب ودواب وغيرها بما في ذلك مطيـة لرجل منهم معه امـرأته. وكانت هـذه المطية شديدة الالـتصاق بزوجة صاحبها إذا دعتها من مكان بعيد أسرعت إليها، وعندما أخذها الحنشل مع ما أخذوا صارت المرأة كلما أبعدوا بغنيمتهم تصيح بأعـلى صوتها منادية مطية زوجـها شعيله فـتنحرف الناقـة وتتجشم من في طريقـها وتعود جرياً إلى صـاحبتـها. فدفـع ذلك الفعـل اللصوص إلى مجازاة المرأة وتهديدها بالقتل إن هي عاودت نداء النـاقة مرة أخرى.

وهناك قصة تناقلها الرواة حدثت منذ عهد غير بعيد وهي باختصار تخص رجلاً يقال له الشليمي من الظفير كسب أباعره عـبدالكريم الجربا وبـعد مرور سنتين على فقده لها ذهب إلى واحد من جماعته شاعر يقال له ابن دهامان وشكى له الحال وأنه مقهور لأخذ أباعره وأن عبـدالكـريم الجربـا رجل كـريم ويوجّب الشعراء وطلب مـنه الذهاب معه إليه وأن يقول فيه شعرا لعله يرد النياق. وذهبوا فعلاً إلى الجربا وقابلهم والقى ابن دهامان قصيدته وبعد أن قال البـيت الأخـير، قـال الجربـا: أنت الشليمي، قال: نعم، قال: أبشر بنياقك وسأكلف الرعيان يعزلونها لك. فقال: ياطويل العمر أنا طـالبك تامر عليهم يجيبوا البل جميعها إلى مورد الماء وأبى ادوّه لها فاللـي تعرفني ما يرده راعيه واللي ما تعرفني فبليّاها. فقال له الجربا: نياقك لها سنـتين ولا ظنتي تعرفك. ولكن الرجل أصر فأمر الجربا بإحضار الإبل وقام الشليمي وارتقى على زبارة وابتدا يدوه لها، فقامـت نياقه، وهي نوق وضح مغاتير، تتسلل من بين النياق واحدة بعد الأخرى حتى اجتمعت عليه ما عـدا واحدة بقيـت مترددة، فـقام الشليمي بضربها بالسيف من عراقيبها وقال للـجربا اذبحها وعـش الجماعة منها، فقال له: ليه سويت بالبهيمة كذا؟ فقال: إن هاذي خارجية ما هي منهن لأن أمها عصت الفحل وبعد فترة جانا

فحل كسب وضربه ولقحت وجابت ها البكره وأمه ما ابغاها ولكن خفت على أمها إن ذبحتها يزيد شحمها فتركتها ترضع أمها وبعدين أقلعه أذبحه أو أبيعه ولكنكم كسبتوا النياق قبل ذلك فلا لي لازم بها.